مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies)
جامعة وهران02/ المجلد 12ع 01. 16/ 01/ 2023
ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

التفكير الأنثروبولوجي في رحلة ابن جبير

The anthropological thinking on Ibn Jubayr's trip

د.عائشة راشدي* D. Aicha Rachdi Docbasta033@gmail.com	اللغة والأدب العربي	جامعة الشاذلي بن جديد / الطارف

Doi : 10.46315/1714-012-001-009

الإرسال: 2021/1/10 **القبول:** 2021/05/03 **النشر:** 2023/01/16

ملخص:

تحاول هذه الدراسة قراءة أدب الرحلة بمنظور منهجي يتجاوز الطرح الأدبي الذي يسم أدب الرحلة في الظاهر إلى البحث عن الطابع الأنثربولوجي الذي يجعل أدب الرحلة يشكل البذرة الأولى للمنهج الأنثربولوجي عند العرب. وقد اخترت لذلك رحلة ابن جبير، وهي من أبرز الرحلات العربية التي عني فيها صاحبها برصد مختلف ملامح حياة الشعوب التي زارها أثناء رحلته لأداء فريضة الحج.

أسست الدراسة على سؤالين جوهريين هما:

- ماهي ملامح الفكر الأنثربولوجي في رحلة ابن جبير؟ وإلى أي مدى نجح في الاشتغال وفق رؤية أنثربولوجية يكون بها سابقا لعصره؟

كلمات مفتاحية: الأنثربولوجيا: الأثنولوجيا، الأثنوغرافيا، أدب الرحلة، ابن جبير

Abstract:

This study attempts to read the trip literature with a methodological perspective that goes beyond the literary focus which, generally, characterizes the trip literature. That is, in this research our focus is to search for the anthropological features that make the trip literature constitutes the first seed of the anthropological approach in the Arabs' studies. I chose for this Ibn Jubayr's trip, which is one of the most prominent Arab trips in which its author intended to track and record the various aspects of the lives of the people he visited during his trip to perform the pilgrimage.

The study was based on rising two fundamental questions:

- What are the features of anthropological thought in Ibn Jubayr's trip? And to what extent he succeeded in working according to an anthropological vision that he had before his era?

Key words Anthropology, Ethnology, Ethnography, Trip literature, Ibn Jubayr.

* - الباحث المُرسل: Docbasta033@gmail.com

مقدمة:

يعد أدب الرحلة واحدا من الفنون الأدبية، التي برع العرب في تأليفها، ونسج خيوطها بألوان السرد للمغامرات، وروائع الوصف للآثار والأماكن التي زاروها، ولم تكن بالنسبة لهم متنفسا وترويحا عن النفس، وإنما كانت واجبا شرعيا لأداء فريضة الحج، وشرطا من شروط التحصيل العلمي، إذ لابد منها كما يقول ابن خلدون: "في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال" (خلدون، 2004، صفحة 614). وعلى عكس ذلك كانت رحلات الغربيين رحلات استعمارية بالدرجة الأولى، إذ كانت الغاية من رحلاتهم فهم عقلية الشعوب من أجل السيطرة عليها واستعمارها.

لقد خلدت عبر أدب الرحلة أسماء عدة كان لها الأثر البالغ في الثقافة والفكر العربيين كالمسعودي وابن بطوطة، وابن فضلان وابن خلدون وغيرهم من الرحالة، الذين جمعوا في كتاباتهم بين الشعرية الأدبية والمنهجية العلمية، وهذا الأمر هو الذي جعل من أدب الرحلة يشكل منعرجا حاسما في الفكر العربي، حيث جسد بحق البذرة الأولى لميلاد الفكر الأنثروبولوجي. إذ يتبين القارئ لتلك الرحلات مساهمة العرب وجهودهم في الدراسة العلمية للمجتمعات البشرية، على نحو ابن خلدون الذي يعد من أكبر الرحالة العرب الذين قدموا خدمات جليلة للدرس الأنثروبولوجي، فلم يكن عالم اجتماع فحسب بل باحثا أنثروبولوجيا من الدرجة الأولى، فقد درس العادات والتقاليد، وأمعن النظر في شروط الحضارة والتأسيس للدولة، وقرأ تأثير البيئة على العمران، كما تحدث عن الاقتصاد، والدين والعادات والمعتقدات وما إلى ذلك برؤية علمية اعتمد فيها على استقراء الحقائق وتحليل الظواهر المختلفة، وكشف الأسباب وتوضيح النتائج. فلم يختلف في بحثه عما قدمه دوركايم، وبندكت، وإيفانز بريتشارد وكلود ليفي شترواس وغيرهم، بل إن القارئ لمقدمته يتبين مزجا واضحا بين فكر أولئك جميعا، ما يؤكد حقيقة نضج البحث الأنثروبولوجي عند العرب وأسبقيته.

يعد ابن جبير هو الآخر واحدا من أولئك الأعلام العرب الذين شغفوا بالكتابة، وتسجيل ملاحظاتهم عن الشعوب التي زاروها، وهو ما تترجمه رحلته إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. فقد عني فيها بوصف مختلف الأماكن التي حلها، والمجتمعات التي عايشها ووقف عند مختلف أنساقها وبنيات تكوينها.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

بناء على أهمية أدب الرحلة وقيمته في الدرس الأنثروبولوجي فقد اخترت رحلة ابن جبير موضوعا لهذه الدراسة التي نهدف من خلالها إلى إعادة تحيين التراث الأدبي العربي وقراءته قراءة معمقة تتجاوز الكشف عن الخصوصية الأدبية للرحلة إلى إماطة اللثام عن الخصائص المنهجية والسمات العلمية التي تتسم بها. وتأتي بذلك القيمة العلمية لهذه الدراسة متمثلة في إعادة الاعتبار لجهود العرب القدامى والكشف عن إسهاماتهم ودورهم في التأسيس للأنثربولوجيا.

فماهي إذن تجليات البحث الأنثربولوجي في رحلة ابن جبير، وإلى أي مدى وفق في قراءة المجتمعات التي عايشها من منظور أنثروبولوجي؟ وهل تضمنت قراءته مختلف إجراءات الأنثربولوجيا واتجاهاتها المتعددة؟

وعلى ضوء هذه الأسئلة بنيت الدراسة على عدد من الفرضيات الجوهرية أهمها:

- وفق ابن جبير في قراءة مجتمعات بحثه من منظور أنثربولوجي وصفي.
- لا تعبر رحلة ابن جبير عن عمل أنثربولوجي متكامل يجعلها تنطوي على مختلف الإجراءات والاتجاهات الأنثربولوجية.

وللإجابة عن الإشكالية المطروحة والتحقق من صحة الفرضيات المقدمة نقف بداية عند تحديد ماهية الأنثروبولوجيا وتوضيح خصائصها. ثم نعاين بجلاء الرحلة المختارة ونكشف عن علاقتها بالبحث الأنثربولوجي.

أولا/ مفهوم الأنثروبولوجيا:

لغة الأنثروبولوجيا(anthropology) (كلمة مأخوذة من اليونانية تتألف من قسمين Anthropos (الإنسان) ومنlogos (علم) وتعني الأنثربولوجيا إذن علم الإنسان (شتراوس، 1977، صفحة 08)

أما اصطلاحا فقد تعددت مفاهيمها بتعدد الباحثين، فمارغريت ميد(M.Mead) (قامت بتحديدها من زاوية سيكولوجية عقدت فيها الصلة بين المعطى الحضاري والطبيعة البشرية، محددة عملها الأنثربولوجي قائلة: « إننا نصف الخصائص الإنسانية للجنس البشري البيولوجية والثقافية كأنساق مترابطة، ومتغيرة وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة. كما نهتم أيضا بوصف النظم الاجتماعية والتكنولوجية، إضافة إلى البحث في الإدراك العقلي للإنسان، وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته. وبصفة عامة نسعى نحن الأنثربولوجيين إلى تفسير نتائج دراستنا، والربط فيما بينها في إطار نظريات التطور أو ضمن مفهوم الوحدة النفسية" (الشماس، 2004، الصفحات 9-10)

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

وهي عند تايلور(Tyler)«الدراسة البيوثقافية المقارنة للإنسان» (الشماس، صفحة 9) أي تقوم الدراسة من هذه الزاوية على الطبيعة البيولوجية للإنسان ومكتسباته الثقافية التي يتلقاها في وسطه الاجتماعي وعلى ضوء تلك المكتسبات يتحدد تميزه عن غيره من الأفراد الذين يعيشون في بيئات طبيعية أخرى. وتعمل الدراسة حسب تايلور على تحديد الفروقات بين أفراد المجتمعات على ضوء الممارسات الثقافية التي يفرضها الوسط البيولوجي. وعلى الرغم من ذلك التعدد في تعريف الأنثروبولوجيا إلا أن ما هو مشترك هو المفهوم العام كونها علم دراسة الإنسان في طبيعته وسلوكياته وأبعاده الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية والدينية.

يتداخل مصطلح الأنثربولوجيا مع مصطلحين آخرين هما الإثنولوجيا (ethnologie) والإثنوغرافيا (ethnography)، وتهتم الأثنوغرافيا بـ«بالدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة العادات والتقاليد والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة» (فهيم، قصة الأنثربولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان، 1986، صفحة 14)أما الأثنولوجيا فتهتم «بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الأثنوغرافية بهدف الوصول إلى تصورات نظرية أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية من حيث أصولها وتطورها وتنوعها» (فهيم، صفحة 15)

ويعد المجالان من أهم الإجراءات الأنثروبولوجية وهذا ما يوضحه كلود ليفي شتراوس **(C.levi strauss)** قائلا: «تقوم الإثنوغرافيا على مراقبة الجماعات وتحليلها من خلال خصائصها، ويتم اختيارها غالبا بين أكثر الجماعات اختلافا، بغية رد حياة كل منها إلى شكلها البدائي بما يمكن من الأمانة، فيما تستخدم الإثنولوجيا الوثائق المقدمة من الإثنوغرافي استخداما مقارنا (...) وبهذين التعريفين تأخذ الإثنوغرافيا معنى واحدا في جميع البلدان، وتطابق الإثنولوجيا تقريبا ما تعنيه الأنثربولوجيا الاجتماعية، وتختص بدراسة المؤسسات المعتبرة كمجموعات من التصورات، وأن الأنثربولوجيا الثقافية تختص بدراسة التقنيات وكذلك دراسة المؤسسات المعتبرة كتقنيات في خدمة الحياة الاجتماعية» (شتراس، صفحة 15)

فالعلاقة إذن بين تلك المصطلحات هي علاقة الفرع بالأصل حيث ينصب عمل الإثنوغرافي على الانتقاء والوصف، وتكون بعد هذا الدراسة التحليلية والمقارنة من وظائف الأثنولوجي، والجمع بين هذه المراحل هو ما يؤسس للعمل الأنثروبولوجي، ويقوده إلى فهم أعمق للمجتمعات المدروسة باعتبارها بنية متكاملة تستوجب قراءتها الاحتكام إلى آليات، ومعايير علمية دقيقة، تتوفر للأنثروبولوجيا عبر انفتاحها على مختلف التخصصات والعلوم.

ثانيا/ طبيعة العمل الأنثربولوجي وتجلياته في رحلة ابن جبير:

يتسم العمل الأنثربولوجي بطبيعة خاصة، تجعله ينفرد عن غيره من العلوم الأخرى على الرغم من تداخله معها كعلم الآثار وعلم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا...إلخ وتتبين تلك الخصوصية في اعتماده على خطوات إجرائية متضافرة يتمم بعضها بعضا، وهي خطوات يتبين القارئ لرحلة ابن جبير حضورها على نحو ما سنوضح.

1-العمل الميداني والطابع العلمي:

يعد العمل الميداني المرحلة الأولى من العمل الأنثربولوجي ،إذ على الباحث أن ينغمس في المجتمع الذي يسعى إلى دراسته، فيعايش أفراده ويحتك بهم ، ويعاين أحوالهم على مختلف الأصعدة يقول إيفانز بريتشارد:" أصبح العمل الميداني عرفا من أعراف الأناسيين، فقد عززت الاعتقاد بأنه إذا كان للإناسة أن تتقدم فإن على الإناسيين أن يعمدوا إلى القيام باستقصاءاتهم الخاصة، وأن يسجلوا معايناتهم بأنفسهم (...) على الأناس أن يقيم صلات وثيقة مع الأفراد مما يتيح له أن يعاين من الداخل لا من الخارج كل النشاطات، وما يجري في حياة الأفراد اليومية، فضلا عن الأحداث غير اليومية كالاحتفالات والمرافعات، فالاشتراك في حياة الجماعة يحيط الأناس علما عن طريق الفعل كما عن طريق السمع والبصر بكل ما يجري حوله" (بريتشارد ا.، الإناسة المجتمعية ديانة البدائيين في نظرية الإناسيين ، 1986، الصفحات 86-93)

مارس ابن جبير هذه الآلية الأنثربولوجية، فحدد موضوع اشتغاله المتمثل في المجتمع وهو ذاته موضوع الأنثربولوجيا، فكان يعايش ويعاين أحوال المجتمعات ونقل إلينا قائلا:" وذلك أنا لما حللنا الإسكندرية في الشهر المؤرخ، أولا عاينا مجتمعا من الناس عظيما برزوا لمعاينة أسرى الروم" (جبير، 1988، صفحة 27)

يتجاوز ابن جبير مرحلة المعاينة، إلى مرحلة التفاعل مع أفراد المجتمع ومشاركتهم في عاداتهم، وحتى الانفعال والتأثر بها فيقول:" ولم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة إلا من خرج للعمرة، من أهلها ومن المجاورين وكنا في جملة من خرج ابتغاء الليلة العظيمة، فكدنا لا نتخلص إلى مسجد عائشة من الزحام وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج. والنيران قد أشعلت بحافتي الطريق كله، والشمع بين أيدي الإبل التي عليها هوادج من يشار إليه من عقائل نساء مكة. فلما قضينا العمرة وطفنا وجئنا للسعي بين الصفا والمروة وقد مضى هدء من الليل أبصرناه كله سرجا ونيرانا، وقد غص بالساعين والساعيات على هوادجهن واصطكاك الهوادج بعضها على بعض. فعاينا ليلة هي أغرب ليالي الدنيا (...) محرمين ملبين داعين إلى الله عزوجل ضارعين والجبال المكرمة التي بحافتي

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

الطريق تجيبهم بصداها، حتى سكت المسامع وسكبت من هول تلك المعاينة المدامع" (رحلة ابن جبير، الصفحات 100-101)

لا يتعلق الأمر في الأنثربولوجيا بالمعاينة كخطوة إجرائية مطلوبة فحسب، وإنما بالطابع العلمي لهذا الإجراء كونه متعلقا بالعلوم التجريبية، وقد كان في هذا الصدد العديد من الأنثربولوجيين متخصصين في علوم مختلفة، إذ كان:"بواس فيزيائيا وريفارز كان مختصا بالجسمانيات وإليوت سميث بالتشريحيات، ومالينوفسكي بالفزياء(...) وكان هؤلاء الرجال يعلمون أنه لا مفر في مجال العلم من التحقق من الفرضيات عن طريق المعاينات المباشرة" (برتشارد، صفحة 87)

يظهر ابن جبير مطبوعا بتلك الروح العلمية، فينزل إلى الميدان كما بينا آنفا، ويعاين بجلاء أوضاع المجتمع وأحواله، ويمزج في عمله بين المعاينة والتجربة للوصول إلى الحقيقة، والتجربة كما هو معلوم تعد من صميم المنهج العلمي، ومما نقرأه في ذلك الشأن تجربته التي قام بها حول صحة الاعتقاد السائد بين أهل مكة، حيث يعتقدون زيادة ماء زمزم ليلة النصف من شعبان فيقول :" وكان من الاتفاق أن اعتنينا بهذا الأمر لغلبة الاستفاضة التي سمعناها في ذلك، واستمرارها مع سوالف الأزمنة عند عوام أهل مكة فتوجه منا ليلة الجمعة من أدلى دلوه في البئر المباركة، إلى أن ضرب في صفح الماء وانتهى الحبل إلى حافة التنور، وعقد فيه عقدا يصح عندنا القياس به في ذلك. فلما كان في صبيحتها وتنادى الناس بالزيادة الزيادة الظاهرة خلص أحدنا في ذلك الزحام على صعوبة، ومعه من استصحب الدلو وأدلاه. فوجد القياس على حاله لم ينقص ولم يزد. بل كان من العجب أن عاد للقياس ليلة السبت، فألفاه قد نقص يسيرا لكثرة ما امتاح الناس منه ذلك اليوم.(...) وفي صبيحة يوم السبت الخامس عشر منه تتبعنا هذا القياس استبراء لصحة الحال فوجدناه على ما كان عليه" (رحلة ابن جبير، صفحة 112).

تتضح الروح العلمية لديه أكثر باعتماده على المبدأ الآني في الدراسة فكثيرا ما يوثق لأقواله بذكر تاريخ المعاينة كما هو الشأن في القول السابق الذي حدد فيه التاريخ بليلة النصف من شعبان ويتبين بالقارئ بوضوح اعتماد ابن جبير على التأريخ في مواضع كثيرة.

2/ الوصف وتكامل الرؤية:

إن العمل الأنثربولوجي هو عمل وصفي في مراحله الأولى، فأصل الأنثربولوجيا إثنوغرافيا كما بينا سابقا. وفي هذا الصدد يعد الوصف إجراء قارا عند ابن جبير يترافق مع عملية المشاهدة والمعاينة فقد اعتمده في كثير من المواضع، ونقرأ من مظاهره ما جاء في وصفه المستفيض للعمرة الرجبية فقال:" شاهدنا من ذلك أمرا عجيبا، يعجز الوصف عنه، والمقصود منه الليلة التي يستهل

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

فيها الهلال مع صبيحتها، ويقع الاستعداد من قبل ذلك بأيام، فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار، وذلك لأنا عاينا شوارع مكة، وأزقتها من ظهر يوم الأربعاء، وهي العشية التي ارتقب فيها الهلال، قد امتلأت هوادج مشدودة على الإبل مكسوة بأنواع كسا الحرير، وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها، فأخذوا في الخروج إلى التنعيم ميقات المعتمرين، فسالت تلك الهوادج في أباطح مكة وشعابها، والإبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين" (رحلة ابن جبير، صفحة 100)

وصف أيضا عادات السلام عند أهل دمشق فقال "وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض، وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هويا" (رحلة ابن جبير، صفحة 269). ويأتي الوصف في غير هذه المواضع كما قلت إلى حد أنه يجعل من الرحلة ذات طابع أثنوغرافي بالدرجة الأولى. إلا أنه لا ينفي طابعها الأنثربولوجي باعتماد ابن جبير على إجراءات أنثربولوجية أخرى على نحو ما سنوضح لاحقا.

يرتبط الوصف من جانب آخر في الأنثربولوجيا بالرؤية المتكاملة للمجتمع، فالأناس مطالب كما يقول بريتشارد بأن "يدرس مجمل الحياة المجتمعية، إذ يستحيل عليه أن يفهم بوضوح وبصورة تفصيلية قسما من الحياة المجتمعية لشعب ما لم يضع نفسه ضمن سياق حياتهم المجتمعية برمته، بوصفه كلا متكاملا(...) بل ثمة أمر آخر فحتى لو اختار أن يكتب كتابا حول السستام القانوني لقوم من هذه الأقوام، حول دياناتهم أو اقتصادهم فليس له أن يصف هذا الوجه الذي استرعى انتباهه دون سائر الأوجه وأخذها بعين الاعتبار" (بريتشارد ا.، صفحة 95)

تبرز ملامح تلك الرؤية عند ابن جبير في وصفه لمدينة حران، حيث وقف بالمشاهدة والمعاينة لمختلف الأنساق المكونة لبنية المجتمع، فبدأ بوصف طبيعة المدينة ومناخها في مقابلة بين الطبيعة والثقافة فقال:" بلد لا حسن لديه ولا ظل يتوسط برديه قد اشتق من اسمه هواؤه، فلا يألف البرد ماؤه، ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه، ولا تجد فيه مقيلا ولا تتنفس منه إلا نفسا ثقيلا، قد نبذ بالعراء ووضع في وسط الصحراء، فعدم رونق الحضارة، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة" (رحلة ابن جبير، صفحة 218)

انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن صفات أهل المدينة وأخلاقهم فقال: "وبهذه البلدة كثير من أهل الخير وأهلها هينون معتدلون محبون للغرباء مؤثرون للفقراء، وأهل هذه البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة إلى الشام على هذا السبيل من حب الغرباء وإكرام الفقراء. وأهل قراها

كذلك فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زادا، لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة، وشأن أهل هذه الجهات في هذا السبيل عجيب" (رحلة ابن جبير، صفحة 219)

أشار أيضا إلى الجانب الاقتصادي فقال:" ولهذه البلدة المذكورة أسواق حفيلة الانتظام (...) والبلد كثير الخلق واسع الرزق ظاهر البركة والله ينفع المسلمين ببركاتهم وصوالح دعواتهم بمنه وكرمه" (رحلة ابن جبير، الصفحات 219-220)، أما عن النسق الديني فمما ذكره قوله:" قد جعل هذه البلدة مقرا للصالحين المتزهدين ومثابة للسائحين المتبتلين (...)وأما عبادهم وزهادهم والسائحون في الجبال منهم فأكثر من أن يقيدهم الإحصاء" (رحلة ابن جبير، صفحة 220)

التفت إلى جانب ما سبق إلى النسق السياسي فقدم وصفا صريحا حول نظام الحكم السائد في حران فقال:" ليس في ملوكها من يناهض صلاح الدين فهم على طاعته، وإن كانوا مستبدين، وفضله يبقى عليهم، ولو شاء نزع الملك منهم لفعله بمشيئة الله" (رحلة ابن جبير، صفحة 103)

يتضح على ضوء ما تقدم ذكره أن وصفه جاء في الغالب غير مفصل من ذلك وصفه للنسقين الاقتصادي والديني قد جاء مختصرا، إلا أن هذا لا ينفي الرؤية الشاملة لعمله، خاصة وأنه في مجتمعات أخرى يستفيض في الحديث عنهما كما هو الشأن في حديثه عن النسق الاقتصادي لقبيلة السرو المائرين إذ شرح كيفية التعامل التجاري بينهم وذلك عن طريق التبادل أو ما يعرف بنظام المقايضة وهو أول النظم الاقتصادية التي عرفتها المجتمعات، فوقف برؤية تقييمية لهذا النظام حيث قال "ومن العجب في أمر هؤلاء المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم، إنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل، فأهل مكة يعدون لهم من ذلك مع الأقنعة، والملاحف المتان وما أشبه ذلك من مما يلبسه الأعراب ويبايعونهم به ويشاورونهم" (رحلة ابن جبير، الصفحات 103-104)

لم يبتعد ابن جبير فيما سبق عما وصلت إليه الأنثربولوجيا الغربية، على نحو ما يظهر عند مارسيل ماوس في كتابه الهديةthe gift الذي شرح فيه التبادل عند المجتمعات البدائية، وكما بين ماوس القانون المتحكم في تبادل السلع المادية، بين ابن جبير هو الآخر الطابع الإلزامي لتلك الصيغة التجارية ووضح المعتقد الكامن خلفها فقال" ويذكر أنهم متى أقاموا على هذه الميرة ببلادهم تجدب ويقع الموتان في مواشيهم وأنعامهم، وبوصولهم بها تخصب بلادهم وتقع البركة في أموالهم. فمتى قرب الوقت ووقعت منهم بعض غفلة في التأهب للخروج اجتمع نساؤهم فأخرجنهم..." (رحلة ابن جبير، صفحة 105)

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

أما في النسق الديني فقد بين إيمانهم السليم مستشهدا بقول الرسول ﷺ "الإيمان يمان"، كما توقف عند عاداتهم الغريبة في الصلاة فقال " وأما صلاتهم فلم يذكر في مضحكات الأعراب أظرف منها، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم، فيسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقرا، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة، ومنهم من يسجد الاثنين والثلاث والأربع، ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلا، وأيديهم مبسوطة عليها، ويلتفتون يمينا وشمالا التفات المروع، ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم، ولا جلوس للتشهد، وربما تكلموا في أثناء ذلك وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به ووصاه بما شاء، ثم عاد إلى سجوده إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة" (رحلة ابن جبير) وقد جاء وصفه لهذه العادات برؤية ساخرة وتهكم واضح واستنكار لها مستندا في هذا إلى المعطى الثقافي الديني الذي يتبناه، وما جاء من أحكام شرعية في طريقة أداء الصلاة في الإسلام.

3/المقارنة:

يرتبط هذا الإجراء بانفتاح الرؤية لدى الأنثروبولوجي، واتساع مداركه حول مجتمعات عديدة، ويرى ايفانز بريتشارد أن المقارنة هي المرحلة الثالثة من العمل الأنثروبولوجي" فبعد أن يقوم النياس بتفصيل الخطوط الكبرى لبنية المجتمع ينصرف في المرحلة الثالثة إلى مقارنة هذه الخطوط مع خطوط بنى مجتمعات أخرى، ثم إن دراسة كل مجتمع جديد توسع آفاق معرفته بمختلف البنى لمجتمعية وتساعده على وضع نميطة معينة بالأشكال المجتمعية، وعلى تعيين خصائصها الجوهرية، وتحديد الأسباب التي تولد اختلاف بعضها عن بعض" (بريتشارد إ.، ص 75)

لقد زار ابن جبير العديد من البلدان منها مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وصقلية ودمشق والعراق ولبنان ...إلخ، وتمكن إزاء ذلك من الانفتاح على العديد من النظم الاجتماعية الخاصة بكل مجتمع على حده. وحاول في رحلته أن يبرز خصوصية بعض المجتمعات من خلال مقارنتها بالمجتمع الذي ينتمي إليه، من ذلك حديثه عن مدينة حمص حيث قال عنها:" تجد في هذه البلدة عند إطلالك عليها من بعد، في بساطها ومنظرها وهيئة موضوعها بعض شبه بمدينة إشبيلية من بلاد الأندلس" (رحلة ابن جبير، صفحة 213)

قارن أيضا بين أهل المغرب والمشارقة حيث قال: "وليحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادة واضحة لا بنيات لها، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع، وفرق ضالة وشيع، إلا من عصم الله عز وجل من أهله، كما أنه لا حق ولا دين إلا عند الموحدين أعزهم الله ..." (رحلة ابن جبير، صفحة 48).

والملاحظ أن المقارنة كانت أقل الإجراءات المعتمدة، إذ جاءت مقارنته في كثير من الأحيان محدودة وغير شاملة لجميع الأنساق المكونة لبنية المجتمع الذي كان يعاينه.

4/ الروح الأدبية والطابع السردي:

تعد بادئ ذي بدء العلاقة بين الأنثروبولوجيا والأدب علاقة وطيدة، والفصل بينهما فصل صوري تستدعيه الخصوصيات الدقيقة لكل منهما، ذلك أن العمل الأنثربولوجي هو عمل أدبي في نهاية المطاف، إذ بعد أن يعايش الباحث المجتمع ويعاين نظمه وأنساقه، يأتي في المرحلة الأخيرة إلى كتابة ما جمعه بأسلوب أدبي سردي، وليس أدل على ذلك من أن الأعمال الأنثربولوجية الكبيرة قد تجلت فيها الروح الأدبية بشكل واضح وفي هذا يقول نصر حامد أبو زيد :"فكتابات عالم مثل السير جمس فريزر وبخاصة كتابه الغصن الذهبي(the Golden Bough)عمل علمي رصين يتبع أساليب ومناهج البحث الأنثروبولوجي السائدة في ذلك الحين ، ولكنه كتب في الآن ذاته بأسلوب أدبي رفيع يضاهي أرقى أساليب التعبير في الأعمال الروائية الكلاسيكية، كما أن الوقائع والأحداث والظواهر الاجتماعية والثقافية والحقائق التاريخية التي يضمها الكتاب صيغت في شكل روائي جذاب، وتدور حول مشكلة محورية أشبه شيء بالحبكة في الأعمال الروائية ..." (زيد، 2002، صفحة 47)

إن الأنثروبولوجي مطالب بأن يكون أديبا بالدرجة الأولى، إذ الكتابة الأنثربولوجية تستدعي آلية السرد لنقل الصورة الحقيقية للمجتمعات. والأمر ذاته ينطبق على أدب الرحلة حيث يكون السرد وسيلة لتحرير الأخبار عن المجتمعات، والتعبير عن أنساقها ووصف بنيات تشكلها. و في هذا الصدد لم تخل رحلة ابن جبير من سرد واضح لتفاصيل حياة المجتمعات التي زارها، من ذلك حديثه عن مكة المكرمة وآثارها وأخبارها الشريفة، وعن مدينة السلام والموصل ودمشق وحلب... إلى غير ذلك من المدن التي وقف ساردا لأحوال أهلها وأخبارهم، بطريقة جمع فيها بين علمية الباحث الأنثروبولوجي وبلاغة الأديب وتفننه اللغوي. وتعد الروح الأدبية أكثر الإجراءات اعتمادا وحضورا في رحلة ابن جبير، وهي وإن كانت كذلك فإنه لا ينفي عنها طابعها الأنثربولوجي وجهد صاحبها، ليس في الكتابة عن المجتمعات فحسب، ولكن في قراءتها من منظور علمي سابق لعصره.

خاتـمة:

يمكن القول بناء على ما سبق إن رحلة ابن جبير جسدت بشكل خاص المرحلة الأولى من العمل الأننثروبولوجي، إذ سادها الطابع الوصفي الأثنوغرافي أكثر من التحليل والتعليل للظواهر والبحث في أصولها، ولذلك لم نعثر في كثير من الأحيان على شواهد ونصوص تحليلية.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

تضمنت الرحلة المدروسة عددا من الآليات الأنثربولوجية المذكورة سابقا، ولكنها بقيت إلى جانب ذلك مفتقرة لبعض الآليات الأخرى منها:

- عدم تحديد الأسباب المؤدية للاختلاف بين المجتمعات ولا ريب أن هذا مرده إلى مدة إقامة ابن جبير التي كانت قصيرة، فلم تمكنه من التعمق الشديد في فهم المجتمعات التي زارها، فمدة الإقامة اللازمة لدراسة شعب من الشعوب لا يمكن أن تنحصر في أيام معدودة أو شهور قليلة، فهي تتراوح كما يقول بريتشارد من "سنة إلى ثلاث سنوات، إن هذه الفترة تساعد على معاينة سير الحياة المجتمعية لشعب من الشعوب خلال جميع الفصول، وعلى وضع جردة دقيقة بتفاصيل هذه الحياة على الباحث أن يعمد إلى التحقق بعناية من جميع النتائج التي يستخلصها" (بريتشارد إ.، الصفحات 92-93)

- غياب الموضوعية التي يفرضها البحث الأنثربولوجي، فقد غلبت الرؤية الذاتية على الرحلة، حيث كان ابن جبير يستند إلى منظومة القيم الإسلامية التي تشكل مرجعيته الدينية، فشكلت المعيار الأساسي في النظر إلى الثقافة المدروسة والحكم عليها ويتجلى حكمه من خلال عدد من الملفوظات من قبيل أعوذ بالله، يا للعجب، ومما ذكره في هذا استعاذته بالله مما شاهده في طقوس الاحتفال في عرس إفرنجي فيقول:" فأدانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة فيه" (رحلة ابن جبير، صفحة 208).

ومن ذلك أيضا ما جاء في وصفه لعادات السلام عند أهل دمشق فقال: "وهذه الحالة من الانحراف الركوعي كنا عهدناه لقينات النساء، وعند استعراض رقيق الإماء، فيا عجبا لهؤولاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال. لقد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الأبية منه، واستعملوا تكفير الذمي المنهي في الشرع عنه. لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل فيا للعجب منهم إذا تعاملوا بهذه المعاملة، وانتهوا إلى هذه الغاية" (رحلة ابن جبير، صفحة 100). وقد وصل به الأمر إلى النقد الشديد على نحو ما جاء في حديثه عن أهل السودان إذ قال:" وهذه الفرقة من السودان أضل من الأنعام سبيلا، وأقل عقولا لا دين لهم سوى كلمة التوحيد، وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم ولا جناح على لعنهم" (رحلة ابن جبير، صفحة 100)

على الرغم من غياب بعض الآليات الأنثروبوجية فإن ذلك لا ينقص من قيمة أدب الرحلة واعتباره بذرة أولى لنشأة الدرس الأنثروبولوجي عند العرب، بل إن مجرد توفرها على المعاينة والبحث الميداني يمنح لابن جبير وسام التفوق على الباحثين الأنثروبولوجين الغربيين الأوائل الذين لم تكن لهم مقابلات مباشرة مع الأهالي، وكانوا يكتفون بالأخذ بالرواية والعودة إلى الكتب

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

التاريخية كما هو الشأن عند فريزر ومورغان وتيلور...إلخ. ولئن جاءت رحلته مشروعا أنثروبولوجيا غير مقصود، إلا أنها عبرت حقيقة عن عمق الوعي العربي، وإحاطته بعدد لا يستهان به من الآليات الأنثربولوجية التي نجد صداها في الفكر الأنثربولوجي الغربي الحديث والمعاصر.

****

قائمة المصادر والمراجع

أولا/المصادر:

1- ابن جبير، (1988)، رحلة ابن جبير، دط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

2-. ابن خلدون، (2004)، المقدمة، ط1، بيروت، دار الفكر.

ثانيا/ المراجع العربية والمترجمة

1-- أحمد أبو زيد، (2002)، الأنثربولوجيا والفكر والأدب ضمن بحوث في الأنثربولوجيا العربية، ط1، القاهرة، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية.

2- حسين فهيم، (1986)، قصة الأنثروبولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان، ع 98، الكويت، عالم المعرفة.

3- عيسى الشماس، (2004)، مدخل إلى علم الإنسان الأنثروبولوجيا، دط، دمشق، منشورات اتحاد الكتابة.

4-إيفانز بريتشارد، (1986)، الإناسة المجتمعية، ديانة البدائيين في نظريات الأناسيين، تر حسين قبيسي، ط1، بيروت، دار الحداثة.

5-كلود ليفي شتراوس،(1977) ، الأنثروبولوجيا البنيوية، ج1، تر مصطفى صالح، دط، دمشق منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي.